

في مجلات الغرب

من الجزائر

فورج. عدد خاص عن الكاتب الأسباني سرفانتس (١)

[ذلك الجلال الجبار الذي تتنازع به حوادثها ،
وذلك الأرهاف الذي تنفذ به إلى أعماق قلوبنا ،
والذي تجعلنا نفوذ به إلى طوايا القلوب ، ما تكشفه
القصة من ضعف تخضعنا له حواسنا ، ومن جبروت
طاغ تخضعنا له شهواتنا ، كل هذا يجعلنا - في إعجاب
غامر - نقرن هذه القصة « قصة دون كيشوت » بأرق
وأقوى ما كتب دستوفسكي وشكسبير من صفحات .]
جان كاسو

في الجزائر سنوات ، واشتغل كاتباً للحسابات
فكان يقع في أخطاء حسابية تؤدي به إلى
السجون ، ثم مات في نفس اليوم الذي
مات فيه شكسبير (٢) ، مات مشرداً معداً
وإن كان قد خلف للإنسانية تراثاً واسع كل
الأمم فشاركت وما زالت حتى اليوم تشارك
فيه ، ترك لنا كتاب « دون كيشوت »
وكتاب « القصص المثالية » كما ترك لنا
مسرحية « توماس » .
مولد سرفانتس في الأندلس ، وأسرته
في بلاد المغرب العربي ، ما لحه وحققه
البحث العصري من صلات وتأثيرات للأدب

تمت في العام الماضي أربعائة سنة
على مولد ميغيل دي سرفانتس (٣) في
الكلادة هينيرس - مدينة ينم اسمها
الأسباني عن أصله العربي ويذكر بملك العرب
وقلاعهم وحضارتهم في الأندلس . ولد في
أسرة متواضعة عجزت حتى عن أن ترسله
إلى المدارس ، وعاش حياة شاقة لم يعرف
الراحة فيها قط . اشتغل خادماً وكاتباً
للقاصد البابوي ، فثقلت عليه حياة لا استقلال
له بها ولا مجد فيها ، وغامر في حياة الجنديّة
فأصيب في ذراعه بعاهة يوم وقعة
ليبانت ، وقبض عليه القراصنة وأسروه

(١) : Forge, Cahiers littéraires Nord-Africains, No. 5 et 6 Octobre - Novembre 1947 : « Hommage à Cervantes » .

(٢) أنظر « ميغيل سرفانتس » في مجلة « الكاتب المصري » عدد ٣٥ (أكتوبر ١٩٤٧) .

(٣) ٢٣ أبريل سنة ١٦١٦ .

الأيد، والذي يمثله قصة «دون كيشوت». نرى في أدنى اللوحة التي رسمها الفنان صورة سانشو قاعدا مطمئنا في قعوده، يأسا، راضيا عن نفسه كل الرضا. هو راض عما حوله من طعام وشراب وأداة من أدوات اللهو، ومطية سهلة يسيرة هي الحمار الذلول بصره مردود إلى الأرض مقصور على الخبز واللحم والخمر، في عينيه وشفتيه ابتسامة كلها دعة وبلادة واطمئنان. في أعلى الصورة يرتفع قوام دون كيشوت لا يظهر الفنان منه إلا نصفه الأعلى، وقد حجبته جثة سانشو نصفه الأسفل، فهو يبدو للناظر وكأنما ينشق عن رجل القنصاعة والرضا ويسمو منه، في يساره كتاب يعلم منه الحق والعدل وفي يمينه سيف يقر به الحق والعدل اللذين آمن بهما، عيناه إلى السماء يرق بهما إلى المثل الأعلى الذي لا يزال ينشده، وبوجهه آثار ذلك ألم النبيل الذي تنطوي عليه نفسه، قد ظهر من خلفه في الصورة جواد ييجاز (٢) وهو ثائر، مشوب، تكاد تتحرك الصورة بنزاعه إلى الوثوب، هيئة أرادها الفنان مناقضة كل المناقضة للحول الحماري ضجعت، كما جعل صورة دون كيشوت مناقضة لصورة سانشو، فنجح فيما أراد كل النجاح.

وقنا عند هذه الصورة قليلا لأنها تكاد تلخص فكرة المجلد كله، فإن التحية الموجهة إلى سرفانتس في هذا المجلد، لم تتمثل في اطراد أسلوبه أو حتى تقده وتحليله، ولكنها قد اتجهت إلى استخلاص وتجلية البواعث والهموم والمقاصد التي توحىها كتابات هذا الأسباني الخالد. نرى هذا في

العربي في قصته «دون كيشوت» (١)، وأخيراً ما نجلوه آثار سرفانتس على أهل عصرنا، في تطلهم وشكوكهم واستخفافهم، من معاني الايمان والطموح والعمل الايجابي لتحقيق مثل العليا ونصرة الخير والحق — بعض هذا كان سبباً كافياً لاجراج هذين العددين من مجلة «فورج» تحية لسرفانتس، وهذا كله يجعلنا نقصر الحديث اليوم عليهما. وأول ما نلاحظه في هذين العددين — وقد صدرا في مجلد واحد — هو مشاركة الكتاب والفنانين العرب في إصداره. كتب بعضهم بالفرنسية، ولكن بعضهم كتب لأول مرة باللغة العربية ونشر مقاله بهذه اللغة مع ترجمة فرنسية. وهذه أول مرة تنشر المجلة فيها مقالات بالعربية. ثبتت هذه الخطوة الجديدة في سبيل التعاون والتفاهم وتقديرها قدرها، ولكننا نرجو أن تكون عناية الذين يكتبون بالعربية في أعداد المجلة القادمة أظهر جدا من عناية الذين كتبوا بها، ومن ترجموا من الفرنسية إليها في هذا المجلد. ثم نلاحظ عناية المجلة بالرسوم الفنية في هذا المجلد؛ فقد ألحقت به سبع صور ممتازة قوية التعبير كلها من وحي سرفانتس، منها صورة رسمها الرسام العربي محي الدين الطرطوشي تمثل سرفانتس في أحد شوارع مدينة الجزائر عام ١٥٧٥، ومنها اللوحة التي رسمها دي بوزون لدون كيشوت وسانشو بانزا بطلي قصة سرفانتس الخالدة. وقد وفق الفنان في هذه اللوحة ليس إلى تصوير الرجلين فقط، بل إلى التعبير القوي عن الصراع الذي مازال يقسم نفس الانسانية منذ

(١) ألقى الدكتور طه حسين بك محاضرة عامة عن هذا الموضوع في جامعة فاروق الأولى في الاسكندرية سنة ١٩٤٣.

كله مثبتاً تأثر سرفانتس العميق بطبيعة تلك المقاطعة، «متبعاً هذا التأثر في قصة «دون كيشوت»، موضعاً كيف كانت مقاطعة لامانش جديرة بأن توحى إلى سرفانتس شخصية كيشوت البطل الحالم والشاعر المغامر في نفس الوقت الذي توحى إليه فيه شخصية سانشو الفلاح الحامل القانع بالبحث عن رزق يومه.

وفي مقال آخر يرى الكاتب الأسباني مونوا (٣) أن دون كيشوت ليس إلا صورة من نفس مؤلف القصة، وأن صراع دون كيشوت ونزاعه إلى المثل الأعلى هو صراع سرفانتس ونزاعه، وإن يكن قد أضفى عليه من الابتسام والسخرية الرقيقة ستاراً لا يجب ما تحته من صرامة وجد. ثم يرى الكاتب أن شخصية دون كيشوت وشخصية سرفانتس نفسه ليستا إلا صورة من نفس أسبانيا، أسبانيا المكافئة لثورة لشل العدل والحب والحرية والسلام دائماً.

وفي تصوير هذه الثورة الدائمة لتحقيق تلك المثل العليا، وفي الرمز إلى أن أسبانيا ما زالت حتى يومنا الحاضر ثائرة لتحقيق تلك المثل المشوذة، يكتب الكاتب الأسباني جوزيه سانثيس بانوس مقالا ثانيا عنوانه «أسير قراصنة آخرين» (٤). وحول هذه المعاني نفسها يكتب مارسيل هارومي مقالا يمتاز عن نومانس (٥) المدينة الأسبانية التي خلدها سرفانتس في تصويره كفاحها للحرية، المدينة الأسبانية التي عرف أهلها أن الرومان سيغزونها في عقر دارهم، وأنهم

الحوار الطويل - أو المسرحية القصيرة - الذي يطالعنا في أول العدد (١). كتب هذا الحوار الكاتبان جوزيه سانثيس بانوس ولويس بيير قبلما فيه مبلغا عظيما جدا من التوفيق، ولخصا في صفحات قليلة قوية حياة وعمل وتفكير سرفانتس. وقد بدأ هذا الحوار في مدينة الجزائر حيث سجن سرفانتس في إحدى سنوات الأسر أيضا، سنة ١٥٧٩. وقد ختم الكاتبان الحوار بما يشبه المغزى أو الموعظة التي يستخلصانها من مسرحياته القصيرة. وكنت أود لو عفى القراء من هذا الختام، فليس بهم إليه حاجة، وقد كان في الحوار نفسه بما فيه من قوة الرمز وحسن الأداء ما يغنى عن بسط لمغزى للقارى.

يلي هذا الحوار مقال قليل القيمة عن عصر سرفانتس للكاتب جورج ماريا، ثم مقال آخر عن المحيط الطبيعي الذي تدور فيه حوادث قصة «دون كيشوت» - كتب هذا المقال بالفرنسية الكاتب عمر جلالى (٢) فأحسن إحساناً كبيراً. يبدأ مقاله بتتبع رحلة مؤلف «دون كيشوت» من أشبيلية إلى مقاطعة لامانش عام ١٥٦٩، ثم يقدم للقراء صورة للمقاطعة في ذلك العهد بمدنها وقراها، بما في تلك المدن والقرى من شوارع وأزقة وبيوت وناس، ويصور جبال المقاطعة الموحشة وأوديتها الفقيرة القاحلة، وما كان يتسامر به أهل الجبال أو يتهامس به أهل الأودية من القصص والأساطير وحكايات المغامرات، يصور هذا

(١) José Sanchis Banus et Louis Pierre, *Evocation de Cervantès*

(٢) Omar Djillali, *Paysages du Don Quichotte*

(٣) *Sobre la Obra de Cervantes*, por Eulogio Munoa

(٤) *El Cautivo de Otros Corsarios*, por José Sanchis Banus

(٥) M. Harouimi, *Numance ou la tragédie d'un peuple libre*

وهذا المقال لا يمتاز بروعته وبما يهز فينا من مشاعر الوطنية فقط ، ولكنه يلفت القارئ إلى أن شهرة سرفانتس باعتباره مؤلف «دون كيشوت» لا ينبغي أن تحجب نبوغه باعتباره مؤلفاً مسرحياً جديراً بأن يقرن ويقارن بمعاصره الأسباني دى فيجا (١) بل بمعاصره الانجليزى شكسبير .

وهذا المجلد لا يظهر لنا سرفانتس كاتباً ومؤلفاً مسرحياً فقط ، ولكنه يقدم إلينا قصيدة إسبانية من شعر سرفانتس مع ترجمة فرنسية لها ، وهي قطعة غزلية عنوانها «التنجيم» (٢) .

وإلى جانب شعر سرفانتس قصائد أخرى أوحى بها أعمال سرفانتس لشعراء محدثين من الفرنسيين والاسبان ، نذكر منها مع الإعجاب قصيدة « في طريق الحلم » للشاعر الأسباني سيجوفيا (٣) . والعدد لا يظهر أثر سرفانتس في فن الشعر فقط ، ولكنه قد خصص مقالين ، أحدهما للحديث عن تأثير «دون كيشوت» في الغناء والآخر عن تأثيرها في السينما .

وقد أشرت حتى ختام هذا المقال عرضي للقصة العربية التي حدث بها محمد عبد الجليل الجزائري وكتبها رشيد التونسي (٤) ، أخرتها لما فيها من بساطة ومن رمز ومن إحياء ، هي قصة جزائري صغير في الثانية عشرة من عمره ، تقع في يده قصة «دون كيشوت» فيقرأها في ركن من أركان داره الريفية ، ثم يعود إلى قراءتها وقد خلبه ما فيها من إيمان دون كيشوت وحماسه للعدالة والنجدة ، فما هو إلا أن

لا قبل لم يهزم وأن لاسيلى إلى الفرار منهم ، ففضلوا الموت على التعرض لاستعبادهم وتناحروا جميعاً إلا واحدا منهم أحب الحياة حبا جافلاذ ببرج المدينة الشاهق يعتصم به . حين عن أن يقتل نفسه أو أن يدعو غيره إلى قتله كما فعل مواطنوه جميعاً . وقد ببى بالبرج حتى دخل الرومان إلى نومانس فلم يجدوا من يستأسر من أهلها ليسعوا به إلى روما ويسيروا به في طرقاتها ويزفوه إلى أهلها رمزا لانكسار نومانس واستذلالها . حتى إذا بلغوا البرج ورأوا ذلك الذى اعتصم به أسنوه ، وعرف أنهم مبقون على حياته ، ساعون به إلى روما ، فعز عليه أن يخذل مدينته نومانس وما خذها من أهلها سواه ، فلم يستسلم ولم يستأسر وألقى إلى قائد الرومان خطابا قويا رائعا أوله حديث الخوف الذى أحس به والحين الذى أطلق ساقيه بالفرار إلى البرج ثم قيدهما به ، ثم أشار إلى الأسر الذى إن أبقي عليه حياة جسده فانه متلف نفسه ، وإلى الذل الذى سيلحق ببلده إن هو استأسر ، وانتهى إلى أنه الآن يحس قوة نفسه ترتد إليه ، ويعد بعض تلك القوة التى عرفها مواطنوه ، وفروا بها من الذل إلى الموت ، ثم يتبع ذلك بالقاء نفسه من أعلى البرج فيعصمه الموت من الأسر والاستذلال . يحكى الكاتب قصة هذه المدينة ويحلل المسرحية الرائعة التى صور مؤلف «دون كيشوت» فيها تلك البطولة ، والخطبة التى أجزاها على لسان صاحب البرج ، مسجلا الجملة الماثورة «إن نومانس قد هزمت هازميا»

(١) Lope de Vega

(٢) La Buenaventura

(٣) Por Los Caminos del Sueno, por S. L. Herrero Segovia

(٤) «لقاء مع سرفانتس» .

الموجع عليه ، ثم يريد أن يسعى به إلى السجن . ولم تنفع دون كيشوت الصغير لا حريته ولا خيالاته ، ولكن نجاه أن رآه شيخ من البدو ، لم يلبث أن غاب في أشجار الزيتون ، ثم عاد بجاعة قد تسلحوا بأغصان من الشجر ، وبدت في وجوههم علامات التصميم والاجماع والجد . تقدموا صوب الجندي والصبي ، ففهم الجندي وأسرع باطلاق الصبي بعد أن أنذره ألا يعود إلى مثلها . يقول عبد الجليل في ختام المقال موضحا رمز المقال وإجاءه : « ولقد قرأت في السنة الماضية كتاب «دون كيشوت» مرة أخرى ، فوجدت نفسى ما زلت معجبا « بهدلقو » (١) الخالد . ولكن استخلصت من تجاربي أن عهد المنتصرين للحق بمفردهم قد انقضى وفات ، وأن جماعة من الرجال تحدوهم الارادة والعزم والاتحاد ، ولو كانوا مسلحين بالعصى فقط ، يخدمون الحق أكثر مما يخدمه الفارس المسلح بالحرية . »

أمين طه حسين

يقرأها المرة بعد المرة حتى يتحول إعجابه إلى رغبة ملحة في أن يسير هو نفسه سيرة دون كيشوت ، وأن يطوف مثلما طوف بطل سافانتس ليحمي المستضعف ويذود برمحه عن حق المسكين . يصنع الصبي لنفسه من أغصان الشجر رحا طويلا ، ويطوف على قدميه - فانه لم يجد حتى مثل الحصان الأعرج الذى وجده دون كيشوت ، وما يلبث أن يبدأ أولى مغامراته - وآخرها - حين يرى أعرايية صغيرة في قبضة جندي فرنسى ؛ فقد رعت الصغيرة أغنامها في بعض الأراضى التى جعلتها السلطات الفرنسية لنفسها وحظرت على الأعراب الرعى فيها ، وهذه البنت الصغيرة تتلوى وتصرخ وتبكي وتستنجد في يد مثل السلطة ، لا تعرف ولا تفهم ما جريمة الرعى وما حظر العشب على أغنامها . يرى عبد الجليل هذا فيتقدم بحريته ويرى بها الجندي من وراء فيسقط على الأرض ، وتفر الفتاة من قبضته وتعدو إلى البادية . ولكن الجندي يلتفت إليه وينهال بالضرب

(١) هدلغو تعريب Hidalgo يقصد دون كيشوت .